أسباب تغييب المساهمات الحضارية والثقافية الجزائرية عبر التاريخ

غرس في ذهن الكثيرين من الجزائريين وغير الجزائريين فكرة ضعف المساهمة الحضارية والثقافية الجزائرية عبر التاريخ ، وقد أبرزنا في المحاضرة السابقة عكس ذلك تماما، وتحدثنا عن بعض هذه المساهمات.

يعود هذا التغييب إلى عدة أسباب، ومنها تغيير تسميات الجزائر عبر التاريخ والأيديولوجية الإستعمارية وإهمال تاريخنا وضعف الإهتمام به وغيرها من الأسباب التي سنتطرق إليها في هذه المحاضرة.

تأثير مشكلة التسمية على تغييب المساهمة الجزائرية

هناك مشكلة منهجية على الباحث أن يحلها، وإن لم يوضحها، فإنه لن يجد الإنسان الجزائري في التاريخ، لأن تسمية الجزائري لم تكن موجودة من قبل، فهي تسمية جديدة جدا جاءت مع الفترة الحديثة والمعاصرة، حيث عممت تسمية الجزائر العاصمة على كل سكان هذه البلاد، لكن كيف كان يسمى الجزائري عبر التاريخ، فلو عدنا لفترة ما قبل الإسلام، فكان يطلق عليه اليونانيون والرومان البرابرة، وهو ليس البربر، فهناك إختلاف، وقد أطلق عليهم الرومان هذا المصطلح لأنهم رفضوا الخضوع لسيطرتهم، لكن معهم أيضا كل سكان بلاد المغرب، أما الأغريق فكانوا يطلقون هذه التسمية على كل ما هو أجنبي عنهم .

لكن التسمية الحقيقية للمغاربي كله في العصر القديم هو الإنسان الأمازيغي نسبة إلى مازيغ بن كنعان بن سام بن نوح، وقد سئل وفد مغاربي دخل في الإسلام آنذاك ذهب إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب فسألهم هذا الأخير من أنتم فقالوا نحن أمازيغ، لكن تسمية الأمازيغي تعني كل سكان بلاد المغرب الكبير أي تضم الجزائري والليبي والتونسي والمغربي والموريطاني وغيرهم من سكان بلاد المغرب، لكن هناك تسميات أخرى خاصة، فمثلا أمازيغ ليبيا يدعون ب"الليبيين" وسكان الغرب الجزائري والمغرب وموريطانيا يدعون ب"الموريين"، أما أمازيغ تونس فيدعون ب"الأفارقة"، أما سكان وسط وشرق الجزائر فيدعون ب"النوميديين"، أما الجنوب أو سكان الصحراء فيسمون با"الجيتول" و"الغرامونت"، لكنهم كلهم أمازيغ يتحدثون لغة واحدة هي الأمازيغية، لكن بلكنات تختلف من منطقة إلى أخرى، ولازالت بعض هذه اللكنات موجودة إلى حد اليوم، لكن إذا لا نميز ولا نعرف هذه التسميات لن نجد هؤلاء الجزائريون في التاريخ .

لكن بعد دخول الأمازيغ الإسلام سموهم العرب بالبربر، وليس البرابرة، لأنهم لم يفهموا لغتهم فقالوا عنهم ماذا يبربرون، فجاءت كلمة البربر التي بقيت شائعة، وتشمل كل سكان بلاد المغرب والذين هاجروا أيضا إلى الأندلس، فهؤلاء البربر هم الذين فتحوا الأندلس وأقاموا حضارة عظيمة هناك، كما نشروا الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء، وساهموا مساهمة كبيرة في الحضارة الإسلامية، كما كانوا وراء نشأة مختلف الدول الإسلامية التي عرفتها البلاد المغاربية أثناء هذه الفترة، أي بعد دخول هؤلاء الإسلام مئة بالمئة، وهي ظاهرة لم تحدث إلا لهؤلاء الأمازيغ أو البربر، وهو ما يحتاج إلى دراسة علمية تفسر أسباب ذلك، وأين يكمن سر هذه الظاهرة .

وقد سميت الجزائر بعد إعتناق سكانها الإسلام ب"المغرب الأوسط" مقابل المغرب الأقصى وأفريقية التي كانت تونس، ونشير أن في الفترة المعاصرة حافظت كل من ليبيا وموريطانيا على التسميات القديمة التي كانت سائدة قبل إعتناق سكانها الإسلام، فيما حافظت المغرب على تسمية العصور الوسطى أي "المغرب الأقصى"، أما الجزائر وتونس فقد عممت تسمية عاصمتها على كل البلاد في الفترة الحديثة والمعاصرة.

لكن إذا تكلمنا عن البربر فمعناه كل سكان بلاد المغرب، لكن سكان الجزائر يمكن أن نميزهم بقبائلهم الكبرى وهي زناتة وصنهاجة وكتامة، ولكل واحدة منها فروع أخرى يمكن أن نعددها، لكنها لم تستقر في مكان واحد بل تهاجر من منطقة إلى أخرى ، وقد هاجر الكثير منها إلى الأندلس وكانت وراء تلك الحضارة العظيمة.

إذا جئنا إلى العوامل التي تختفي وراء تغييب مساهمة الجزائريين في الحضارات الإنسانية عبر التاريخ، فإننا نجد أولها عدم إدراكنا لمشكلة البحث التي طرحناها آنفا، فضاع الجزائري في مسميات لا ندرك أنها التسمية القديمة للجزائري، لكن هناك عوامل أخرى وراء هذا التغييب، ونذكر منها:

النزعة المركزية الأوروبية

نقصد بها جعل بعض الأوروبيين أنفسهم أهم مركز العالم وإقصاء الآخرين، فمثلا لا يقيسون تقدم الآخرين أو تخلفهم إلا إذا تبنوا فل سفتهم وقيمهم ونمط حياتهم، فعندما نتحدث عن مراحل التاريخ مثلا فإننا نقسمها على أساس التاريخ الأوروبي البحت، وإن تحدثنا عن الحضارات والثقافات، فلا نتحدث إلا عن أوروبا مهملين كل الحضارات الأخرى، ومنها الحضارات الصينية والهندية والإسلامية وغيرها، فمثلا قلما يشير الأوروبيون إلى دور المسلمين في المجال الحضاري، وإن اعترفوا لهم بالفضل، فيكتفون فقط بالقول أنهم نقلوا الفكر والفلسفة اليونانية إلى أوروبا، فمثلا عندما يدرس الأوروبي تاريخ الحضارة ينتقل مباشرة من الحضارة الرومانية- الأغريقية إلى الحضارة الأوروبية الحديثة بداية من عصر النهضة في القرن الرابع عشرالميلادي، وإن أشار إلى الدور الحضاري للمسلمين، فهم في نظره مجرد معبر أو ناقل للحضارة الرومانية- الأغريقية لا غير، وكأنهم لم ينتجوا أي شيء، ففي الغالب لا يشيرون مثلا أن الجبر هو منتوج حضاري إسلامي واللوغارتميات منتوج الخوارزمي، ولا بقولون أن أبن النفيس هو الذي اكتشف الدورة الدموية بل ينسبون كل هذا للأوروبيين .

لكن لا يجب علينا أن نعمم، لأن هناك البعض من الباحثين الأوروبيين الذي يعترفون بفضل المسلمين على الحضارة اليوم مثل روجي غارودي الذي اعتنق الدين الإسلامي في منتصف الثمانينات من القرن العشرين، كما نجد الباحث غوستاف لوبان الذي كتب عن ما يسميه ب" حضارة العرب" وعن مدى تأثير المسلمين في حضارة الغرب، ونجد أيضا الألمانية زغريد هونكة التي كتبت كتابا سمته " شمس الله تسطع على الغرب".

وبناء على هذه النزعة المركزية الأوروبية التي أشرنا إليها تم إقصاء وإهمال الجزائري في خضم هذا الإقصاء للمسلم، كما أهملت أيضا مساهمته قبل الفترة الإسلامية أي في القديم بسبب هذه الأورو- مركزية، فنسبت مساهمته الحضارية إلى الرومان واليونان، أو كما يقول محمد الميلي "في كل النظريات نجد إصرارا على تقديم شعبنا في صورة الشعب العاجز عن صنع التاريخ، وإذا صادف أن سجل التاريخ القديم فترات إزدهار نسبي في هذه الربوع، فإن المؤرخين الإستعماريين يسارعون إلى تقديم أسباب خارجية لتفسير ذلك، فإذا نجح المغاربيون القدماء في الزراعة فالفضل في ذلك –حسب زعمهم يرجع إلى الفنيقيين، وإذا استطاعوا أن يقيموا اسطولا بحريا كان عامل

سلام في حوض المتوسط، فالفضل يرجع إلى القرطاجيين، وإذا كانوا قد أقاموا سدودا للري فيقولون أن الرومان هم الذين فعلوا ذلك، ويبدو أن الفضيلة الوحيدة التي رضي أولئك المؤرخون بتسجيلها لشعبنا هي فضيلة الحرب والقتال، بشرط أن تكون المقدرة على الحرب مساوية للتخريب والتهديم والوحشية".

الأيديولوجية الإستعمارية

عندما احتل الإستعمار الفرنسي الجزائر وضع أيديولوجية تقول أن مهمته تمدين الجزائريين، واستند عليها لإقناع الرأي العام الفرنسي ذاته، فكان يقوم سنويا بمعرض للمستعمرات في باريس يصور فيها الإنسان المستعمر، ومنه الإنسان الجزائري، وبأنه كان همجيا متخلفا قبل تعرضه للإستعمار، ثم يعرض ما يعتبره منجزات الإستعمار في تمدين هذا الإنسان المستعمر، وبناء على ذلك أيضا اهتم المستعمر بالتاريخ المؤدلج، ومعناه التاريخ الغير الموضوعي أي المبني على العلمية، وبتعبير آخر وظف الدراسات التاريخية لخدمة الأيديولوجية الإستعمارية التي كانت تقول بأن الإستعمار الفرنسي أستعاد أرض الرومان، ولهذا عندما اهتم بالآثار قام بمحو كل الآثار الأمازيغية القديمة والإسلامية في الوقت الذي أولى إهتماما كبيرا بالآثار الرومانية، وهي عملية تشبه إلى حد ما ما يقوم به الكيان الصهيوني اليوم في القدس من عملية تهويد للقدس بمحو كل الآثار الإسلامية والإهتمام بما تعتبره آثارا يهودية مثل هيكل سليمان .

ونجد نفس الأمر في المجال التاريخي، فمثلا أعتبر المؤرخ الإستعماري الفترة الإسلامية بأنها "الفترة المظلمة في تاريخ الجزائر" على عكس الفترة الرومانية، كما ركز هذا المؤرخ الإستعماري على فكرة مفادها عدم بناء الجزائريين ليس فقط الحضارة، بل لم يوجد لهم كيان ولا دولة عبر التاريخ، فهم مجرد قبائل متناحرة فيما بينها، وهذا الأمر هو الذي دفع بعض المؤرخين الوطنيين على التركيز كثيرا على التاريخ القديم للجزائر أثناء الفترة الإستعمارية لدحض هذه الطروحات الإستعمارية وإبراز أن الجزائر أمة عريقة وموغلة في القدم، وحتى لو تعرضت للإستعمار الروماني ، فإن هذا الإستعمار لم يهدأ له بال بفعل المقاومات العديدة التي قام بها الأمازيغ أي الجزائريون على يد يوغرطة وتاكفاريناس وفرموس وطالات وغيرهم من أبطال الجزائر، ومن أبرز هؤلاء الكتاب الوطنيين الذين واجهوا الأيديولوجية الإستعمارية آنذاك-أي أثناء الفترة الإستعمارية- نذكر منهم مبارك الميلي وأحمد توفيق المدني وعبد الرحمان الجيلالي ومحمد الشريف الساحلي وغيرهم، لكن للأسف لم يول هؤلاء الكتاب الجانب الحضاري أهمية كبيرة، وركزوا على جانب المقاومة أكثر.

ضعف الإهتمام بتاريخ الجزائر في السنوات الأولى لإسترجاع إستقلالنا

لا يمكن أن نحمل فقط الآخر مدى الإهمال الذي عانه التاريخ الجزائري، خاصة في جانبه الحضاري والثقافي ، فالجزائريون أيضا يتحملون مسؤولية كبيرة في هذا الإهمال، ففي المجال التاريخي ركز الجزائريون على فترة المقاومة المعاصرة للإستعمار، وكأن تاريخ الجزائر بدأ مع مجيء الإستعمار الفرنسي أو في أول نوفمبر 1954، فوقعوا بذلك دون وعي منهم في المصيدة الإستعمارية التي تقول أن الإستعمار هو الذي أوجد الجزائر ولا وجود لأمة ولا وطنية جزائرية إلا بعد الإصطدام مع هذا الإستعمار، كما ركزوا على الجانب المسلح فقط حتى غرس في ذهن الطفل أن تاريخ الجزائر هو تاريخ حروب فقط، لكن كان بإمكان الجزائري أن يهتم بكل تاريخ الأمة الجزائرية منذ القديم إلى حد اليوم والذي هو سلسلة مترابطة ممتدة عبر عشرات القرون، ولا يمكن لنا أن نهمل حلقة واحدة من هذه السلسلة، فنغرس بذلك في الطفل الجزائري الإعتزاز بتاريخ أمته

الموغلة في القدم كما يقول مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية في عهد الرئيس هواري بومدين، ولا نكتفي بذلك، فقد كان لزاما علينا أن نهتم بالجانب الحضاري للإنسان الجزائري والأمة الجزائرية كي تكون لدى الطفل الجزائري الإيمان بهذا الإنسان بدل غرس عقدة النقص فيه لأنه لايعرف أن أجداده سواء في القديم أو الفترة الإسلامية قد كانوا منتجو حضارة وأفكار، ولم يكونوا همجا لا يعرفون إلا خوض الحروب فقط كما أراد أن يغرس ذلك الأيديولوجي الإستعماري .

ف لهذا نجد الكثير ممن درس التاريخ في المدرسة خاصة في السنوات الأولى لإسترجاع إستقلالنا تجده لا يعرف ولا شيء عن بلادنا، بل يعرف فقط عن الحضارة المصرية الفرعونية والعباسية في بغداد، بالإضافة طبعا الحضارة الأوروبية، لكننا نحن الجزائريون كأننا لسنا موجودين في التاريخ، بالرغم أننا أنشأنا حضارة الطاسيلي قبل الفراعنة أي في ستة آلاف سنة قبل الميلاد، وأقام الأمازيغ أجداد الجزائريين خاصة والمغاربيين عامة حضارة عظيمة في الأندلس، لكن للأسف عندما نتحدث عنها ننسبها للآخرين أي الأمويين بالرغم من أن أجدادنا الأمازيغ أو المغاربيون، ومنهم الجزائريون هم فاتحو الأندلس على يد طارق بن زياد، وهم الذين أقاموا فيها تلك الحضارة الأندلسية العظيمة، بل أغلبنا لا يعرف شيئا عن يوبا الثاني وإنجازاته الحضارية، وأشير هنا إلى ضعف الدراسات التاريخية والأثرية في بلادنا، فمثلا عندما نأتي إلى العهد القديم، فإننا نركز على الآثار الرومانية، وكأن الطليان يحتاجون إلى من يضيف إلى بحوثهم التاريخية، في الوقت الذي نهمل بسبب نقص الإمكانيات في أغلب الأحيان الحفريات الأثرية لما يوجد من معالم تحت تلك المدن الرومانية، لأن هذه الأخيرة قد بنيت في الحقيقة على مدن جزائرية تحمل معالم حضارية، والهدف من ذلك هو سياسة الرومنة التي مورست في القديم بهدف طمس معالم الجزائر الحضارية وهويتها ووجودها وكيانها.

كما يجهل الجزائري أيضا الكثير عن الدول العظيمة التي أقامها أجداده بعد إعتناقهم الإسلام، ومنها الدولة الرستمية والفاطمية والزيرية والحمادية والمرابطية والموحدية والزيانية، وتشهد الآثار الحضارية لهذه الدول إلى حد اليوم عن المجد الحضاري الذي بلغه هؤلاء آنذاك، خاصة أثناء العهد الموحدي الذي يعد قمة الحضارة الإسلامية.